

مدرسة للتخطيطات

في مصر مدارس لخدمات مخافة الدرجات ، ومدارس للطبيبات ، ومدارس للمرضات ومدارس للفنون . . . إلى آخر هذه الخدمات الاجتماعية التي لا بد من التخصص فيها أو على الأقل الإلمام بها قبل احترافها .

والبيت ليس أقل شأنًا من المدرسة والمستشفى والمصنع ، فلم لا تكون له مدرسة واحدة بين هذه المدارس الكثيرة ، تهني البنت لخدمته وتأسيسه والقيام بشأنه على الوجه الذي يليق بجلال المنزل ومكانة الأسرة ؟

إن الدنيا تنمى والحياة تتطور ، والفتاة التي كانت تصلح لتكوين الأسرة في الماضي والتي لا تزال حتى اليوم صالحة لهذه المهمة في الريف ، لم تعد قادرة ولا صالحة على النهوض بمهمتها في المدينة بعد التطور الاجتماعي الحثيث الذي أصاب جميع تقاليدنا .

فلا بد إذن من إعداد خاص لفتاة المنزل يؤهلها للاضطلاع بتبعاتها الكبرى ، ويتناسب مع أهمية دورها في تكوين الجيل الجديد ، وقيامها على حراسة المجتمع في أشخاص أطفالها الصغار .

حقيقة أن الطبيعة تشترك اشتراكا عظيما في إعداد البنت للبيت والحياة الأسرة ، ونوحى إليها بالواجب وتنبه غرائزها للعمل المطلوب ، ولكن الطبيعة وحدها لم تعد تكفى ، لأن الإنسان لا يمينا اليوم حياة طبيعية من جهة ، ولأن ظروفنا خاصة قد تعرقل عمل الطبيعة من جهة أخرى وتعمل على إفساد اتجاهها .

وليس هناك ما يعرقل عمل الطبيعة ويهدد اتجاهها القويم كالعقيدة التعنيمية التي تسود الآن مسألة تعلم البنات في مصر ، فهذه العقيدة تؤهل الفتاة لكل شيء إلا الوظيفة الطبيعية الأولى لها ، وهى حياة المنزل والأهومة والأسرة !

فهى قادرة على أن تجعل منها مدرسة أو طيبة أو محامية أو ممزضة أو عاملة في مصنع أو متجر أو أى شيء آخر ، بينما هى تصرفها بشدة وعنف عن حياة الأسرة ، وتضع بينها وبينها الحواجز والعراقيل التي يصعب عليها تخطيها لو شئت أن تلجأ للبيت أو شئت الظروف أن تلجأ إليه .

ولا أتوانى عن اتهام هذه العقلية بأنها تهدم كيان الأسرة وتوهن بناء المجتمع ، وتشرد البنات المتعلّمات عن جديهن ، وتفسد عليهن المستقبل ، وتدعهن غير صالحات للوظيفة الطبيعية التي خلقن من أجلها ، ولا سيما في شغب كالشعب المصري مرتبط بـتاريخ عريق من التقاليد والقيود الخاصة بالأسرة .

فبرامج التعليم الحالية جادة كل الجدة في أن تجعل من الفتاة رجلاً ، سواء في ذلك من يسلك طريق التعليم العام فالتعليم الجامعي ، ومن يسلك طريق التعليم النسوي .

فأما الفريق الأول فأمره معروف ، وهو يدرس دراسة الذكور ويعيش في جوهم ويحاول تقليدهم حتى في المشية والحركة ومخارج الحروف إلى درجة قد تضحك في بعض الأحيان .

ومن العسير على هذا الفريق أن يرتد إلى حياة المنزل بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً بين جدران المدارس على نظام خاص ومواعيد خاصة . فالفتاة التي اعتادت هذه الأعوام الطويلة أن تخرج كل يوم في الصباح وتعود في المساء ، وأن ينصرف همها إلى الكسب والنجاح والتسابق مع زميلات وزملاء ، وألا تعرف شيئاً عن حياة المنزل ، ولا تزور المطبخ لأنها لم تألفه ، أو لأنها لا تجد فضلة من الوقت بعد إجهاد الدرس تنفقوا فيه لو أرادت أو أراد لها أهلها معرفة شيء عنه — هذه الفتاة ليس من الممكن عملياً ولا عقلياً أن تترك بعد ذلك إلى البيت أو تألفه إن بينها وبينه حواجز من العادة التي تأصلت ، عادة الخروج في الصباح والعودة في المساء ، والاختلاط بالعديد الجم من الزميلات والزملاء في جو أوسع وأمرح من أجو البيت المحدود .

وقد تصلح هذه الدراسة لفريق خاص من الفتيات : هن فتيات الطبقة الراقية التي لا يطلب منها بذل مجهود خاص في الحياة المنزلية . الطبقة التي تملك استخدام طبّاخ وسفرجى ومرضعة ومربية غير الخدم العاديين ، وتبقى ربة البيت للاطلاع الثقافي والمقابلات والزيارات ولعب التنس وحضور الحفلات .

بخلاف الطبقة المتوسطة والأقل منها فهاتان لا طاقة لهما بهذا كله ، وهما في حاجة إلى ربة بيت لها شيء من الإلمام بحياة البيوت ، ولها عقلية بيئية وهذا هو المهم .

وأما الفريق الثاني — الفريق الذي يسلك طريق التعليم النسوي — فظهره يفر ، وبرنامجه يندفع ، ولكنه في الحقيقة لا يزيد كثيراً على الفريق الأول في الصلاحية لحياة البيوت . وذلك بفضل العقيدة التعليمية التي تفصل بين المدرسة والبيت في النظام والترتيب والاتجاه .

ذلك أن دروس التدبير المنزلي في هذه المدارس لا تزيد على أنها مظاهر جوفاء لا يمكن تطبيقها في الحياة العادية . ومن أمثلة ذلك أن البصل يخرط بالشوكة والسكين ، وأن الجهد منصرف إلى عمل المربيات والحلويات كأن البيوت تعيش عليهما ، وبأنيابها حيويات مما يستطاع عمله في بيوت الطبقات الفقيرة والمتوسطة . فطبق الحنوي الواحد قد يكلف خمسين قرشاً .

وعلة ذلك أن المعلمات لم يعشن في بيوت ، وإنما يأخذن دزوسهن حتى في التدبير المنزلى من كتب معظمها منقول عن الكتب الانجليزية ! وتلك علة العلل في الحياة المدرسية .

ثم إن البرامج في هذه المدارس مثقفة بالمواد النظرية التي تحفظها التلميذات عن ظهر قلب ، ويصرفن في حفظها وتجويدها طول النهار ونصف الليل بحيث يتعذر على أية تلميذة أن تندمج في حياة أسرته أو تدخل مطبخها أو تدرى شيئا عن شؤونها العائلية طالما هي في المدرسة .

حتى إذا عادت الى المنزل بعد غيابها عنه سنوات طويلة عادت غريبة عنه ، بعيدة عن جؤه ، لا تألفه ولا تطيق المكث فيه منفردة عن الصواحب والزميلات والمدرسات وجو المجرات المدرسية والعقلية الدراسية التي لا تلتئم في شيء مع عقلية البيوت .

ولعل من الطريف أن نتحدث هنا — بعد خبرة وتجربة — عن أوهام التلميذات الصغيرات التي يحطن بها حياة المدرسات !

إن هؤلاء الطفلات ليدهن كل الدهش لو رأين إحدى مدرساتهن تدخل منزلا أو ترافق أحدا من أسرته أو تشتغل بشأن من شؤون البيوت ! فهن لا يتصورن أن المدرسة مخلوقة عادية كأمهاتهن تشتغل بما تشتغل به المرأة العادية !

ومهما يكن مبلغ هذه الأوهام الصغيرة من الغرابة ، فإنها صادقة في صميمها . فالواقع أن المدرسة والتلميذة على السواء تكادان تخرجان عن حياة المرأة الطبيعية ، تكادان تكونان جنسا آخر غير الجنس النسوي المعتاد . وهذه الأوهام أدل ما تكون على حقيقة حياة هؤلاء الشارقات عن جنسهن الخاسرات خسارة كبرى في الحياة !

والسبب في هذا كله كما قدمت هو العقلية التعليمية التي تحرص على التفريق التام بين جو المدرسة وجو البيت ، ولا تحاول أن تجعل من المدرسة بيتا منظما راقيا فتخفف من أثر السنوات الدراسية الطويلة في إفساد غرائز الأمومة والأسرة والبيت في نفوس المتعلمات .

وسبب آخر لعله يزول مع الزمن ، وهو أن المتعلمات لا يزلن قلة قليلة بين الفتيات مما يخيل لمن أنهن جنس آخر غير جاسهن ، وأنهن مخلوقات جديدة لا تمت بصلة للمخلوقات الأخرى الجاهلة ، وأن ميزتهن الكبرى يجب أن تكون هي الرجولة لا الأنوثة ، وأن خدمة البيت وظيفة الجاهلة التي لا تليق بالمتعلمة .

وهذه عقلية مؤتنة سترول بعد تصميم التعليم بين الفتيات . ولكنها في دورها الخطر في هذا الجيل مما يضاعف أزمتنا الاجتماعية ، ويساعد العقلية التعليمية الحاضرة فيما تصنعه من إفساد الطبيعة النسوية وعرقلة وظائفها الأصلية .

لهذا كله يجب أن تكون في محسر مدارس الخطيبات . فقد فشلت مدارس التربية النسوية ومدارس الثقافة النسوية في إعداد فتاة المنزل لأنها انسأقت وراء المظاهر البعيدة عن حقائق البيوت . انسأقت الى الشغل للمعارض ونيسل الجواز وعمل المربيات والحلويات والمفارش الغالية والفساتين الفاخرة التي لا طاقة لمنوسطى الحال بتكليفها الباهظة .

ثم ارتكبت الغلطة نفسها التي لا مفتر منها وهي الفصل بين البيت والمدرسة بمحواجز لا يمكن تخطيطها ، وب عقلية مدرسية لا تطبق العقلية المنزلية ولا تصبر عليها !

وأهم ما تصنمه مدارس الخطيبات في نظري ، هي أن تحاول رد الشاردات عن الجنس إليه ، وأن تفهمهن أنهن فتيات خلقن لانزل والأسرة ، وأن تكون هي ذاتها على نظام البيوت العادية في حياتها وطعامها وشربها واستقبالاتها وزياراتها وعلاقات تلميذاتها ومدرساتها وناظراتها .

فإذا نصححت في تقرير هذه الحقيقة في أذهانهم بالإرشاد والعمل ويجو الحياة العامة في المدرسة ، أخذت في تلقين الفتيات وتدريبهن على التدبير المنزلي الواقعي في حياة البيوت وقدمت الأهم على المهم .

وفي اعتقادي أن الشرط الأساسي لنجاح المدارس في مهمتها هذه ألا تقيم معرضا واحدا ، وألا تطمع في نيل جائزة واحدة . فالمعارض والجوائز هي اللعنة التي تصيب كل عمل جدى عندنا فتخرجه عن وضمه الطبيعي الى وضع مصطنع لا عرض له إلا المظاهر والإعلان ! وقد أنشأت اليابان مدارس من هذا الطراز لتقوم بالوظيفة التي عجزت عنها الجامعات والمدارس النسوية على السواء ، وفي مصر يمكن أن تبدأ هذه المدارس بعد الدراسة الثانوية مباشرة ، وأن يباح دخولها كذلك لخريجات الجامعة ومدارس المعلمات إذا شئ أن يتيأن للحياة المنزلية ، وبذلك يجتمع بين الثقافة العقلية والتدريب المنزلي .

ومن المؤكد أن يقبل الشبان على خريجات هذه المدارس إذا أمكن أن تسلم هي الأخرى من لعنة العقلية المدرسية ، وأن يختار لها مربيات زاولن بالفعل حياة البيوت ، وعرفن شيئا من جوها الروحي والعقلي يطبعن به تلميذاتهن .

والواقع أن شبان هذا الجيل حائرون في اختيار شريكات الحياة ، بين فتاة الجامعة المترجلة الدافرة من كل وظيفة نسوية ، وبين خريجات المدارس النسوية المولعات بالتشور والمظاهر البعيدات عن الجو المنزلي وعقليته الحقيقية ، وبين الجاهلات المدربات على حياة البيوت ، وليس بين هؤلاء جميعا من تصلح لتكوين الأسرة الصحيحة .

ومن المؤكد كذلك أن تقبل أيها الفتيات متى عرفن إقبال الشبان ، وفي اسم هذه المدارس نال حسن يجذبن إليها على كل حال !